ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

الصورة النمطية لقبائل أولاد نايل من خلال الكتابات الفرنسية في القرن19م

The stereotype of the ouled-nail tribes through the French writings in the19

د. بكاري عبد القادر Dr. Bekkari Abdelkader Bekk1960@yahoo.fr	تاريخ حديث ومعاصر	مختبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا (Lehaan)/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة ابن خلدون-تيارت/ الجزائر

Doi 014-003-009-1714/10.46315

الإرسال: 2020/0300/24 القبول: 2020/04/23 النشر: 2020/06/16

ملخص:

تعددت كتابات الرحالة والمستكشفين الأوربيين وتنوعت حول القبائل الجزائرية خاصة منذ مطلع القرن19م، تلك الكتابات التي صاحبت اهتمامات الحركة الاستعمارية الفرنسية للجزائر، والتي لازالت تقريبا هي المصدر الوحيد لجل ما يتعلق بتاريخ القبائل الجزائرية. ومن ثم فإن كثيرا من التزييف والمغالطات ما زالت عالقة بهذا التاريخ فيما يخص دراسة القبائل والمجموعات السكانية الجزائرية، والتعرف على خصائصها ومميزاتها الثقافية والحضارية. وفي هذا الإطار يأتي هذا المقال لتتبع عدد من الكتابات الفرنسية المؤلفة حول قبائل أولاد نايل الجزائرية التي عرّفَتنا بعاداتها وتقاليدها وممارساتها اليومية، في سياق تحري منهجية من منظور المنهج التاريخي المقارن لمحاولة استخلاص الصورة العامة عن هذه القبائل في عيون هؤلاء الكُتّاب..

كلمات مفتاحية: أولاد نايل؛ الصورة النمطية؛ القبيلة؛ الصحراء؛ المستكشفون.

Abstract:

The writings of European travelers and explorers were numerous and diversified around the Algerian tribes, especially since the beginning of the 19th century ad. These writings, which accompanied the interests of the French colonial movement of Algeria, are still almost the only source of the history of the Algerian tribes. Thus, much of the falsification remains the hallmark of this history with regard to the study of the Algerian tribes and about their cultural and civilizational characteristics. In this context, this article aims to review number of French writings about the tribes of the Algerian particularly the Ouled- Nail tribe, in the context of a systematic inquiry from the perspective of a comparative historical approach in order to draw a general view from the perspective of these writings.

Keywords: ouled-nail; stereotype, tribes; desert; explorers.

1- مقدمة:

مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر عام1830م اشتد اهتمام الفرنسيين بالصحراء الجزائرية، واندرج هذا الاهتمام في إطار الإستراتيجية الفرنسية الرامية إلى تحقيق جملة من الأهداف، أهمها السيطرة على الطرق التجارية الصحراوية المزدهرة والمشهورة كمدن الجلفة وبني مزاب والاغواط،

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

وربط هذه المناطق بأماكن نفوذها التي تسيطر عليها، ولذلك توافد عدد كبير من الرحالة والمستكشفين منذ تأسيس لجنة الاستكشاف العلمي عام1897م، وهي لجنة متخصصة في علم الآثار والجغرافيا والأثنوغرافيا (عميراوي، ح،2005: 49).

شكلت رحلات المستكشفين الفرنسيين إلى الصحراء الجزائرية والتي تُرجِمت إلى كتابات فنًا من الفنون الأدبية في الكتابة التاريخية، لما فيها من أخبار وغرائب ومشاهدات، ومساجلات عاشها أصحابها. فالرَحَالة والمُستكشِف وهو يجوب الآفاق يقوم برصد الواقع كما هو دون اللجوء إلى الخيال، لذلك اعتبرت تلك الكتابات مصدرا لا غنى عنها لأي باحث ودارس يهتم بتاريخ وثقافة القبائل الجزائرية منها قبائل أولاد نايل.

إن دراستنا هذه تهدف إلى تتبع عدد من كتابات الرحالة والمستكشفين الفرنسيين المؤلفة حول قبائل أولاد نايل خلال القرنين19و20م، ومنها كتاب «صيف في الصحراء" لأوجين فرومنتين المنشور عام1874م، وكتاب "أسطورة الجزائر" لكورناي تريملي المنشور عام1892م وكتاب"النساء العربيات في الجزائر" لإيبرتين أوكلر المنشور سنة1900م، وغيرها من الكتابات الفرنسية التي عَرضَت بعض الصور النمطية المتعلقة بأولاد نايل، والتي سوف تتدرج مداخلتنا في عرضها لمحاولة الوصول إلى استخلاص الصورة العامة عن قبائل أولاد نايل وعن الصحراء الجزائرية عامة.

وعليه، من الأسباب التي دفعتني إلى هذا الموضوع، هو انه يطرح أفكارا جد هامة، ألا وهي الصورة التي استنبطها هؤلاء الرحالة الفرنسيون، ورغبتنا في معرفتها، لأن الصورة لها هدف واضح في تشكيل الفعل الثقافي في سياق ثنائية الأنا والأخر، وتحليل أوهام المجتمع الكامنة في أعماقه، وإزالة سوء التفاهم الذي ينزع إلى إعلاء شأن الأنا وتحقير الآخر، وأن البحث في الصورة النمطية لأي شعب من الشعوب هي من أهم حقول البحث في الأدب الجغرافي والتاريخي للرحالة.

لذلك ارتأينا في هذا المقال تقديم دراسة حول هذه القبائل من خلال فرز وتمحيص الأعمال الفكرية التي انتهجها هؤلاء الرحالة والمستكشفين، وذلك بطرح الاشكالية التالية: فيما تمثلت الصورة النمطية لقبائل أولاد نايل في كتابات الفرنسيين؟ وهل توجد صورة نمطية واحدة ووحيدة لهذه القبائل، أم تعددت وتنوعت الصور؟ وهل قدم لهم الكتاب الفرنسيون الصورة الحقيقية في كتاباتهم؟ وكل ذلك بفرضيات تحيلنا على أفضلية في مكاشفة تصورات الآخر، والمساهمة في توسيع أفق الكتابة والتفكير، مما يؤدي إلى نضج الشخصية المعرفية، فيتم التعرف على الأنا والآخر في الوقت نفسه.

وما يميز هذه الدراسة، تبني منهجية شملت التعريف بالكتاب وبصاحبه، بالإضافة إلى استعراض استقرائي لما ورد في مضامين الكتب المختارة للدراسة.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

2- **نسب قبائل أولاد نايل:**

كثيرا ما يكون نسب قبيلة أو بطن مجهول، فيقع التصحيف ويكثر الغلط والتحريف، وهو ما ينطبق في جزء إيجابي على الكتابات الفرنسية التي كانت من بين مميزات اهتماماتها التي تميزت بها حول قبائل أولاد نايل، ولكن ما يلاحظ أن عِلمَهم بنسب أولاد نايل وهو الجزء السلبي لم يخرج عن نطاق ما ذكرته الكتابات العربية الإسلامية ومنها تاريخ ابن خلدون، الأمر الذي آثرت أن أبدأ به قبل ذكر ما تناولته الكتابات الفرنسية لتوضيح الرؤية وتقديم المعلومة.

أ-المصادر العربية القديمة منها والحديثة: لقد أجمعت على أن قبائل أولاد نايل عربية النسب هلالية الأصول(دياب، عوف، زغب...) هاجرت إلى افريقية على شكل موجات بشرية متتابعة استقرت في مناطق واسعة من ليبيا وحتى المحيط الأطلسي خلال القرنين11و12م، ليتفرعوا بعد ذلك إلى قبائل العمور والذين سُموا باسم جبل العمور، وقبائل عروة بن زغبة الذين انقسموا بدورهم إلى فرعين: قبائل النظر بن عروة، وقبائل حميس بن عروة، فيكون نسبهم هو: أولاد نايل بن حميس بن عروة بن زغبة بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن جابر الذي ينحدر من بني سليم(ابن خلدون،ع،1981: 30).

ب- الكتابات الفرنسية: من الكتابات التي وقفت عليها في هذا الجانب، نذكر ما ساقه الكونت دي سانفيتال(De San vitale) الذي أكد أن أولاد نايل صفة تطلق على كل القبائل المنحدرة من صلب نايل بن صباح الذي قدم من الساقية الحمراء، والتي تمتد من جبل السحاري شمالا إلى وادي جدي جنوبا، ومن أراضي أولاد شعيب والعجالات غربا إلى منطقة بوسعادة شرق(De sanvitale ,c, 1854 : 201) ، في حين يذكر جورج روبرت(George Robert) أنهم وفدوا إلى الصحراء الوسطى في القرن11م، وهم يشكلون اليوم اتحادية قوية من القبائل تحتل أراضي واسعة تقع بين الزيبان وبوسعادة وجبل عمور(George, R,1891 : 221) .

ج- الكتابات المحلية: ترجع نسبهم لمحمد نايل بن عبد الله الخرشفي بن محمد بن احمد بن المسعود بن عيسى بن عبد الله بن عبد الكريم بن عمر بن محمد بن علي عبد السلام المتوفي سنة1226م بن سيدي مشيش بن أبي بكر بن علي بن محمد حرمه بن عيسى بن سليمان سلام بن مزوار بن حيدرة بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إدريس الأصغر (دفين فاس) بن إدريس الأكبر (دفين زرهون) بن عبد الله الكامل (دفين بغداد) بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. نشأ جدهم محمد نايل بأرض الحضنة، ولما ازداد عددهم وكثر مددهم توسعت رقعتهم إلى مناطق أخرى كالمسيلة وبسكرة وتقرت والجلفة وغيرها من المناطق (قويسم، م،2006: 02).

3-الصورة النمطية لأولاد نايل في الكتابات الفرنسية:

إن الصورة سلاح انتابت تاريخ العلاقات بين الدول والشعوب، تباينت في حدتها ومدتها من بلد لأخر، ومن فترة لأخرى. ومن حالات الصور التي حددها دانييل باجو(Daniel Pageaux) في العلاقات بين الناظر والمنظور، صورة الرهاب(la phobie) وصورة الهوس(Alus)، فالأولى المتمثلة في احتقار الآخر، والنظر إليه بنظرة تحتية مقابل الاعتزاز بالثقافة الأصلية واعتبارها فوقية عليه، وبالتالي إبعاد الآخر، وتهميشه على المستويين الواقع والخيال، وهي الصورة التي يتفق عليها كل الكتاب الفرنسيين الذين نحن بصدد دراستهم في هذا المقال. أما الثانية فهي المتمثلة في الإعجاب والدهشة والانبهار بالمناظر الطبيعية الخلابة، وبجمال الصحراء، وحرارة مناخها وصفاء سماءها، وهي صور تفضيلية عن طبيعتهم ومناخهم وبيئتهم (باجو، د،1997: 107).

ولذلك، عني الكُتاب الفرنسيون بوصف الطبيعة والمناخ والعادات والتقاليد الاجتماعية وآثار الحوادث، كما نقلوا روايات تاريخية لهذه الحوادث، وأخرى شفهية عن أشخاص عاشوها وعايشوها، مما يكسب كتاباتهم قيمة تاريخية رغم الطابع الذاتي الذي تميزت به، لأنهم كانوا شهود عيان عن الجزائر وعن قبائلها في القرنين19و20م. ومن الشهادات التي يقدمها أحدهم عن الجزائر، قوله: 'تملك الجزائر الصحراء والواحات، البحر والجبال، الأراضي الخصبة والغابات...العيون الباردة والمياه المعدنية الحارة...محاجر الرخام، ومناجم الذهب، والفضة والحديد والرصاص...الجزائر تملك كل الثروات، وكل الجمال، ولكنها لا تملك المرأة؟ (Gastineau, B ,1861: 05).

3-1- كتاب: الجزائر الأسطورة في الحج (التل والصحراء)

" l'Algérie légendaire en pèlerinage (tell et Sahara "

الكتاب ذو حجم كبير، يحتوي على 505 صفحة، صدر عن مطبعة أوغسطين شلمال(Augustin Challamel-éditeur) سنة1892م ، مقسم إلى جزأين رئيسيين. الجزء الأول مخصص في الحج من الجنوب إلى الجنوب الشرقي، وفيه يتحدث عن عدد كبير من الأولياء الصالحين، والعلماء الأشراف بالمدن والمناطق التي زارها بداية من مدينة الجزائر والهضاب العليا والى غاية الجنوب الشرقي الصحراوي، والذين بلغ عددهم تسعة عشر وليا منهم سيدي علي بن محمد، وسيدي بوزيد، وسيدي موسى بن علي، وسليمان أبو سماحة، وسيدي نايل. أما الجزء الثاني، فيخصصه الكاتب للحج من الشرق إلى الغرب الصحراوي الجزائري، متحدثا عن قائمة أخرى من الأولياء الصالحين بهذه المناطق، والذين بلغ عددهم اثنان وثلاثين وليا، منهم سيدي عبيد، وسيدي عبد الرحمن بن المناطقي، وسيدي محمد الغراب، وسيدي أبي مدين شعيب، وسيدي محمد الغبريني. أما صاحب الكتاب فهو كورناي تريملي (Corneille Trumelet) الضابط العسكري والمؤرخ الفرنسي، الذي ولد

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

يوم11ماي1817م بمدينة ريمس الفرنسية، دخل الجندية في صفوف المشاة البرية عام1839م ليصبح ضابطا عام1848م ثم كولونيل عام1874م. عمل بالجزائر ما بين سنوات1851-1875م في فرقة المدفعية، وأنهى خدمته العسكرية كقائد للفيلق الثاني عشر مشاة، كما كان عضوا بالجمعية التاريخية الجزائرية. له عدة مؤلفات منها: الفرنسيون في الصحراء- حملة في حد الصحراء الجزائرية (1863)، الجنرال يوسف (1890) والجزائر الأسطورة (1892). توفي في 12جويلية1892م عن عمر ناهز75سنة (Triaud, j-l, 1995, 104).

من الصور النمطية التي يثيرها الضابط العسكري تريملي لقبائل أولاد نايل، الفضاء الجغرافي الذي تحتله في الصحراء الجزائرية، أصلهم ونسبهم ضمن باقي القبائل الصحراوية الأخرى. فبالنسبة للإطار الجغرافي، تمتد أراضيهم ما بين مدينة بسكرة، بوسعادة، جبال سنجاس، سبع الروس وأوكيت، ومن حدود القطاع الوهراني إلى غاية جبل سردون، جبل العمور، الأغواط، وادي جدي وتقرت. ولكن هذه الحدود لا تمنع السكان الرحل النايليين من تحديها، سواء إلى الشمال بحثا عن الماء والكلأ عندما يشتد جفاف الصحراء، أو إلى الجنوب عندما تجود السماء وتنمو الحشائش والنباتات. في هذه الأراضي الواسعة تتواجد وتتحرك قبائل أولاد نايل، إحدى أبرز قبائل الصحراء الجزائرية قوة وأكثرها عددا.

تعود قبائل أولاد نايل إلى مؤسسها سيدي نايل الذي ولد بمنطقة فجيج حوالي سنة1365 م من عائلة شريفة تنحدر من المولى إدريس الأكبر، هذه العائلة التي قَدِمت من الساقية الحمراء، وينتهي نسبها إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبمنطقة سوس أخذ تعاليم الدين والعلم، فتولى سلطتها حتى اشتهر في كامل الصحراء. انتقل بعدها هو وعائلته وجمع غفير من أهاليه إلى بلاد منداس بجبال فليتة بالمغرب الأوسط، لكن سرعان ما غادرها بسبب طلب رجال فليتة مقايضة بعضا من بناته الجميلات الشريفات مقابل حصة من القمح كان قد طلبها منهم، ليستقر به المطاف بمنطقة العتبة قرب عين العريش جنوب بوسعادة، ولأن المنطقة لم تفي بحاجاته الاجتماعية، اتجه شمالا بحثا عن منطقة ملائمة، ولكنه توفي بمنطقة تسمى بـ'واد سبيسب"اين يوجد ضريحه إلى يومنا هذا. (Trumelet, c, 1892, 190).

الصورة الثانية التي يقدمها تريملي عن قبائل أولاد نايل والتي لا تخلو من دور للمرأة النايلية، ما تعلق برواية وقوع زوجة سيدي نايل 'شليحة' في غرام صديقه مليك في غيابه الذي دام ثلاث سنوات، أدى فيها فريضة الحج وزيارة بعض الدول العربية، وهو الذي (أي مليك) تحمل وصية صديقه نايل بالسهر على أولاده وزوجته في غيابه. وبعد عودة سيدي نايل من غيابه اكتشف أن له ابنا رابعا، ولأن سيدي نايل كان لا يحبذ المشاكل ورجلا متسامحا، تقبل الوضع، واعتبره ابنه الذي بُشِر به ليغني بيته (trumelet, c, 1892, 195).

عاش سيدي نايل سنوات بعد رجوعه من المشرق العربي، واشتهر بالكرامات، والتنبؤ بموت الأفراد، وحدوث الأمراض، وقراءة المستقبل كما لو يقرأ في كتاب، وهو ما جعل الكل يتساءل ومنهم الكاتب: وكيف لسيدي نايل أن يرى كل ذلك، ولم يرى ما وقع في بيته أثناء غيابه؟ فكان جواب الكاتب(متهكما) بما يقوله عادة المرابطين، الله أعلم. ترك سيدي نايل أربعة أولاد وهم: احمد الذي توفي مبكرا، زكري، يحي، ومليك، ومن الأخبار الثمينة (والتعبير هنا خاص بالكاتب) أن أحفاده ينتسبون لسيدي مليك ومنهم سالم بن مليك، وعبد الرحمن بن سالم، ومحمد بن عبد الرحمن، وتامر بن محمد، وان المئات من الأحفاد الذين يتوافدون من كل المناطق مرتين في السنة لزيارة ضريحه، وخاصة النساء والبنات النايليات لا يتمتعن بالصفاء التام، لأنهن لا يعتقدن فيه أشد الاعتقاد، ولا يتبركون به إلا لطلب حاجات دنيوية فقط. (Trumelet, c, 1892 , 199)

2-3- كتاب"صيف في الصحراء" Un été dans le Sahara

هذا الكتاب عبارة عن تقارير يومية لما شاهده وعايشه سنة1853م خلال سفريته إلى الجزائر الذي قادته من مدينة الجزائر في اتجاه عين ماضي. يقع الكتاب في 323صفحة، موزعة في شكل عناوين مؤرخة باليوم. هذه التقارير كتبت في شكل رسائل على فترات متباعدة، مما جعلها تبتعد نوعا ما عن الحقيقة، وهو الذي يؤكد هذه الحقيقة ويعتبرها من أساليب منهجه في الكتابة، فيقول:"لو أنني كتبت هذه الرسائل في وقتها، وفي أماكنها لما بدت في شكلها الحالي، ربما كانت ستفقد ما يسمى بالصورة المنعكسة، وإن شئتم كانت ستفقد روح الأشياء. (Fromentin, E, 1977, 73).

صاحب الكتاب هو أوجين صامويل أوجست فرومنتين (Eugène Samuel Auguste Fromentin) ولد في 24أكتوبر1820م بمدينة لاروشيل(فرنسا)، رحالة ومستكشف ورسام، أتم دراسته بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى مدينة باريس سنة1839م ليتحصل على شهادة الليسانس في الحقوق سنة1843م.

ورغم تفوقه في دراسة الحقوق إلا أنه اختار موهبة الرسم كرسام يقوم بتنظيم المعارض والصالونات منها معرض في باريس عام1845م. قام بثلاث رحلات إلى الجزائر سنوات 1846 و1847 و1853م، قال عند رجوعه إلى الجزائر سنة1847م ما يلي:'أخيرا هناك فقط يمكن أن أقول أنني في بلد إفريقي حقيقي، حيث القوافل بجِمَالها، وغابات النخيل، وسكانها الذين لا يزالون على أصالتهم، لا أحسب أن فنانا قبلنا وطئت قدماه هذا الجنوب الذي هو ملك لنا' (Fromentin, E, 2010, 12) من أشهر مؤلفاته كتاب"صيف في الجزائر" وكتاب"سنة في الساحل" وروايته الشهيرة دومينيك (Dominique) التي نشرها في كتاب مستقل عام1863م. توفي في 27 أوت1876م (Fromentin, E, 2010 : 12).

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

كتاب'صيف في الصحراء' صورة للعديد من المظاهر الطبيعية والحياة الاجتماعية للجزائريين، ومرآة عاكسة لنظرة الكاتب الذاتية الضيقة المصبوغة بثقافته وأفكاره، وانتمائه لدولة محتلة لذلك الواقع، وهو أيضا عبارة عن وثيقة تاريخية تعد بمثابة شهادات ذات قيمة كبيرة تكشف من خلالها صورتين: صورة واقعية تنقل الواقع المعاش، وصورة ذاتية تعبر عن نظرته لذلك الواقع وفق رؤيته المتشبعة (Hamon.ph, 1981 : 62).

ارتكزت كتابته على دعامتين اثنتين هما: الصورة والذكرى، جمع من خلالهما العمق الجزائري الصحراوي، مناخه وألوانه، طيوره وواحاته، وعادات وتقاليد سكانه، بذكرياته الحياتية التي لها قيمة اكبر مما تصور، ويحاول تبرير هذا التفضيل للذكريات بعدم التقليل من قيمة الفن الطبيعي، ولكنه تعبير عن تغير في سلم الترتيب، يعني التخلي عن الحاضر المشاهد وإمتاع الذاكرة بالتمتع بالأدب، وهو ما جعل بعض المهتمين يرتبونه في الصف إلى جانب الكاتب فيليكس قوتي(Félix Gautier) من حيث قوة ودرجة الكتابة، كون أن فرومنتين كان مغروم فقط بفن الريشة، وان الأشكال والألوان هي أولوياته، بينما التاريخ والعادات والناس كانت أقل اهتماماته، في حين يتهمه البعض الآخر بالبحث عن الآثار، وبماضي الشعوب وبعاداتهم وبتقاليدهم وبطبع الفرد1690 : Sagues, G,1951)

من الأمور التي يركز عليها كثيرا في كتابه هي طبيعة الصحراء الجزائرية ومناظرها، ولكن الحديث عن الرجال أكثر سواء بالهزل...أو بالتسلية، خاصة فترة القيلولة على سبيل المثال، وهي العادة الغريبة نوعا ما في فرنسا في ذلك الوقت على حسب الكاتب. فالصورة التي يطرحها فرومنتين عن رجال أولاد نايل تشبه إلى حد كبير الصورة التي يقدمها دولا كروا عن مدينة مراكش بالمغرب. فرومنتين له حس قوي عن الأشخاص وعن ألبستهم، وعن أغطية رؤوسهم، والمادة المصنوعة منها. والمشهد التالي يوضح ذلك: "إنه رأس جميل، قوي البنية، متحمس ومليء بالدقة...مع عيون كبيرة وناعمة، وفم مفتوح بشكل متكرر، على طريقة الأطفال، في إشارة إلى أسنانه الرائعة...يرتدي اثنين من الحروق(البرانيس) الأسود وفوقه الأبيض، ويبدو أن هذا الأخير هو الأصيل في منطقة الجلفة، إنه يجعل أطول الرجال يبدو قصيرا وواسعا، ويمنحه مشية ثقيلة...ضف إلى ذلك الأحذية الفارسية الحمراء، والحزام المغربي الملفوف على الخصر، وأخيرا الحبل الطويل من التمائم الخشبية أو الأكياس الجلدية الحمراء (Fromentin ,E,1938 : 12).

تذكر كوليت بودان في مقال لها حول كتاب"صيف في الصحراء"، أنه عبارة عن تلك الصورة التي تجعله يقبل ويرفض الأشكال الكبرى في آن واحد، هذه النظرة سمحت له باكتشاف ذاته، وأعطته أوسع المناهج بعد تجربة كبيرة عايشها بالمنطقة الصحراوية الجزائرية، وخطها في كراسات له بطريقة دقيقة، والتي تميزت بقدرة فائقة على الرؤية(رؤية الأشياء والأشخاص) بفضل ذاكرته

وفهمه، وهي التي تسمى بالصورة المنكسرة(Réfractée)،أو فكر الأشياء، هذه القدرة سمحت لفرومنتين بان يكون أحد الرحالة الأكثر شهرة في القرن التاسع الميلادي(Guillard,2011 : 127)

3-3- كتاب"النساء العربيات في الجزائر"les femmes arabes en Algérie

الكتاب عبارة عن دراسة تاريخية واجتماعية يقع في253صفحة، منشورات شركة المطابع الأدبية عام1900م بباريس، مقسم إلى عناوين رئيسية تستعرض من خلاله الكاتبة عدة قضايا سياسية في شكل مواقف صريحة وجريئة ضد السياسة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، كما تتعرض لقضايا سياسية بالجزائر خلال الفترة الاستعمارية كفرنسة العرب والنساء الجزائريات، والعرب بدون تمثيل نيابي في البرلمان، وقضايا اجتماعية خاصة بالمرأة الجزائرية أقل ما يقال عنها أنها كانت ولا زالت في مجتمعنا من القضايا الشائكة كتعدد الزوجات، والمطلقات، وكهنوت الدعارة، وتكلفة الزنا، والاغتصاب، ومدة وظروف الحمل عند النساء الجزائريات المسلمات...كل ذلك بأسلوب الكاتب الصحفي الإخباري وليس المؤرخ المحقق، وبمنهج وصفي دقيق، وبنوع من الإطناب.

أما صاحبة الكتاب فهي ايبرتين اوكلر(Aubertine Aucler) التي ولدت يوم10 أفريل1848م بسانت بريست ميرا(St Briest de Murat) بفرنسا، من عائلة ميسورة الحال، كان أبوها فلاح غني وشيخ بلدية في عهد الجمهورية الثانية سنة1848م، ولكنه عزل بعد انقلاب لويس نابليون بونابرت سنة1851م. ناضلت من اجل حقوق المرأة الفرنسية في الانتخاب والترشح والملكية الخاصة، كما طالبت بالمساواة بين الجنسين (Féminisme)، وبمراجعة قوانين نابليون بونابرت. شاركت في الرابطة الفرنسية لحقوق النساء مع فيكتور هيغو، وفي سنة1881م أسست جريدة المدنية من اجل تحرير النساء، ولها الفضل في تأنيث العديد من الكلمات الفرنسية وإدخالها في القاموس كالمحامية، البرلمانية، المنتخبة، الشاهدة...انتقلت إلى الجزائر بين سنوات 1888-1892م وبأحياء مدينة الجزائر عايشت المجتمع الجزائري، ووقفت على أوضاع المرأة الجزائرية، فكُلِلَ ذلك بمؤلف موسوم بـ"النساء العربيات في الجزائر"، ومن أشهر مؤلفاتها: "النساء تنتخب"، و"النساء في السلطة"، عادت إلى فرنسا لتواصل نضالها السياسي ونشاطها الاجتماعي إلى أن توفيت في 04 أوت 1914م بباريس(Aucler, A, 1900 : 113).

تتحدث ايبرتين أوكلر عن النساء العربيات الجزائريات بصفة عامة، وتطرح جملة من الصور الاجتماعية للنساء الخاضعات والقابلات للاستحواذ من قبل الرجال بصفة خاصة، فهي تطرح قضية التعليم الشبه منعدم للفتيات في مدينة الجزائر، وتمكُن المرأة من الميراث عند القبائل البربرية، وتعدد الزوجات للاستحواذ على النساء وليس للطقوس الدينية على حد زعمها في المجتمع النايلي، وامتلاك النساء لحرف الحياكة والخياطة والنسيج...كما وأنها تتحدث عن الفتيات الصحراويات اللواتي ينتقلن إلى المدن الساحلية لممارسة البغاء والشعوذة في الطرقات والمنازل،

لكن مع الكثير من المغالطات والمبالغة والتناقض في وصفها حسب اعتقادنا. ولعل الصورة الأولى التي تقدمها عن المرأة في المجتمع النايلي، هي تلك الصورة المحافظة على شرف وكرامة وتقدير المرأة بالابتعاد عن ارتكاب جريمة الزنى، وهي من الأعمال التي يعاقب عليها الشرع والمتعلقة بالطقوس الدينية، رغم أن عدد النساء كان قليلا مقارنة بعدد الرجال (22إمراة مقابل100رجل) وهو ما يثير شهوة الرجال الذين يلجأون إلى تعدد الزوجات. وأن قبيلة الشعانبة حذرت السلطات العسكرية الفرنسية من فتح بيوت الدعارة في مدينة المنيعة، وأنهم سوف يثورون على الثكنات العسكرية في حالة ذلك، وأن هذه التجارة البخيسة لا تليق بنسائهم، وإنما تليق بالعبيد، لأنهم أدنى من مستوى البشر، وان أولاد نايل يزوجون بناتهم لأي متقدم، ليس من اجل الأموال والذهب، وخوفا من الفقر، وإنما اعتقادا منهم بأنهم يتقربون من الله. (Aucler, A, 1900: 127)

كما تتحدث الكاتبة عن جمال النساء النايليات، وبريقهن الجذاب وهن مكسيات من الرأس إلى القدم بالحلي والمجوهرات، حتى أن الأوربيين تأثروا بجمال نساء الصحراء العذارى اللواتي اعتبروهن مثل الحور العين. إن المجتمع النايلي يمثل النمط العربي الجميل، فالرجال يحسنون العزف على آلة الناي، واغلبهم شعراء يتذوقون الكلمات، والنساء يحسنون الرقص، بحركات شبه عارية تغري الناظرين، فهن يتحرشن بالمتفرجين وسط موسيقى صاخبة، تجعل المشاهد لا يمل من هذه الحركات (Aucler. A, 1900 : 128)

أما الصورة الثانية والتي تكاد تتناقض والصورة الأولى، فهي خروج المرأة النايلية في سن التاسعة أو العاشرة من عمرها سواء إلى التنقل في مجموعات إلى المدن الشمالية لتبدأ عملية الإغراء الجنسي، وأن منع الفتيات من البغاء(الزنى) هو مضرة للمجتمع ويسبب أذى للقبيلة، وأن الأولياء هم الذين يشجعون بناتهم على المتاجرة بأجسادهم، ليجمعن الكثير من الأموال، وبعد ذلك يرجعن إلى حضن القبيلة ليجدن الرجال في انتظارهن لطلب الزواج منهن، وحتى عندما حاول الأمير عبد القادر الجزائري منع فتيات أولاد نايل من التجوال في ربوع الوطن للقيام بهذه العملية، حلت بديار أولاد نايل المجاعة والفاقة، واعتبروا ذلك عقابا من الله. وهو ما تذكره الكاتبة ايزابيل إبرهارت من نماذج لأسماء نساء (يسمينة، مباركة، عاشورة...) مارسن هذه التجارة التي كانت المخرج الوحيد لكسر جدار الحياء، حيث تقول" عاشوراء، فتاة كباقي الفتيات من بني جلدتها، ترى أن بيع جسدها هو المخرج الوحيد للمرأة لتخطي العقبات والصعاب، لم ترض بأن تبقى سجينة البيت، أرادت أن تعيش حياتها من دون أدنى خجل لما تقوم به، وترى أن عملها شرعي، ولا تتضايق بمن يختارها، بل إنها لم يخطر ببالها إطلاقا أنها تخلط فرحتها وسعادتها بما يسمى بكلمة صابير أو التجارة الساخرة." (Eberhardt. I, 2015 : 248).

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

4- خاتمة:

قبل أن استعرض ما توصلت إليه من بعض النتائج المستخلصة من دراسة هذه الكتابات الفرنسية حول قبائل أولاد نايل خلال القرن التاسع عشر الميلادي، تجدر بي الإشارة إلى الوقوف عند مسألة منهجية حول هذه الكتابات، وهي أن الأحداث والوقائع التي أولتها الكتابات الفرنسية عنايتها هي أسباب وقائع جزئية خاصة، لأن الأعمال التاريخية تألفت عادة من مجموعة وقائع تخص موضوعات محددة بعينها لم تخرج عن نطاقها الزمانية والمكانية وغيرها من الحدود التي وضعها الكُتّاب لأنفسهم، والتي لم تخرجهم في نهاية الأمر إلى الحقيقة الموضوعية، وبالتالي انقسمت أسباب هذه الوقائع إلى أسباب حقيقية ذاتية، وأسباب عرضية، فالأولى تفاعلت مع الظروف الطبيعية والاجتماعية المتعددة والمتنوعة، أما الثانية فهي غير جوهرية، وما يميز الأولى عن الثانية، قابلية الاستفادة منها في استخلاص الأحداث المشابهة، على عكس الأولى هي فردية تختص بكاتب معين وبحادث خاص، وهي غير قابلة للتعميم.

– قامت فرنسا كغيرها من الدول الأوربية على غرار الدولة الانجليزية بإرسال بعثات علمية استكشافية بمعية الحملات العسكرية إلى الأرياف والصحاري بغرض الاستطلاع، ومعاينة ثقافة وتركيبة تلك المجتمعات المحافظة، وذلك تحضيرا للتوغل نحوها وتفكيكها، إذ يعتبر المساس بخصائص المجتمع سلاحا أقوى وأجدى لاقتحامها.

– ارتكزت الكتابة عند الرحالة والمستكشفين الفرنسيين الذين تناولناهم بالدراسة والتقييم على الصورة والذكرى، حيث أن مشاهد الصحراء لم تهزهم، بقدر ما هزتهم ذكرياتها حين أخذوا يسترجعونها ثانية. ففي المرة الأولى كانوا مندهشين، وفي المرة الثانية أحيت المشاهدة في نفوسهم الذكريات.

- إن الصور التي نقلها الكتاب الفرنسيون عن قبائل أولاد نايل احتل فيها الخيال والعاطفة درجة أعلى من الحقيقة والموضوعية، وأن نظرتهم لم تخرج عن إطار رؤيتهم للآخر الأجنبي من منظور محدد، ساهمت في تأسيسه عوامل كثيرة أهمها الخصائص النفسية، والبيئة الاجتماعية، والخلفية الثقافية، وطريقة الكاتب في التفكير، والعيش في الحياة.

– من خلال الدراسة والتحليل لهذه الكتابات يتأكد لكل قارئ أن هؤلاء الكتاب كانوا يلجأون في تكوين صورهم عن الجزائر إلى تسجيل ما يعيشونه ويسمعونه ويرونه بطريقة لا تخضع لترتيب منهجي، ثم يعيدون بناء وتركيب هذا الكل تحت تأثير العوامل السابقة الذكر، بعد أن يختمر في الذاكرة مدة من الزمن. وهذا ما قام به فرومنتين صاحب كتاب' صيف في الصحراء' والذي جمع مجموعة من الملاحظات المتفرقة ليشكل منها صورة للجزائر، أصبحت بمثابة وثيقة معرفية، ومرجع للقراء.

-إن من يطلع على ما كتبه المستكشفون والرحالة الفرنسيون عن الصحراء الجزائرية وسكانها في رحلاتهم منذ عام1830م يجد أن أغلب هذا الإنتاج نَشرَ في الوعي الفرنسي الصورة المستبقة الموجودة في ذهنه عن البلاد الإفريقية عامة والجزائر على وجه الخصوص، وذلك لصعوبة تخليهم عن المعتقدات التي رسختها الحروب الصليبية الإفرنجية في أذهانهم، وكذلك الشعور بالاستعلاء والتفوق.

– استغلال ندرة المصادر التي تبحث في تاريخ الصحراء وقبائلها ليصوروها متخلفة عن ركب الحضارة، ولا تتمتع بمزايا الشعوب المتحضرة، ليبرهنوا للعالم أنهم جاؤوا لإنقاذ القبائل الصحراوية من الانحطاط، وليخفوا صفحات رائعة من تأثير الحضارة العربية الإسلامية في إفريقيا.

–وخلاصة القول، ومن خلال دراسة كل هذه الكتابات أضم رأي إلى أراء كلا من أندري بريتان الذي يشير إلى أن اهتمام الفرنسيين بدراسة القبائل والمجموعات السكانية بالصحراء الجزائرية تاريخيا واجتماعيا وثقافيا هو استكمال السيطرة السياسية وربطها بإفريقيا الداخلية (بريتان، أ، 1984، 384).

ومع نظرة احمد منور فيما ذهب إليه، قوله" أن الجزائر عرفت أعدادا هائلة من ضباط الشؤون الأهلية والرحالين الذين اختصوا في دراسة عادات وتقاليد وأنماط المعيشة لدى سكان البلد بمختلف مناطقهم، وكانت تلك التقارير تهدف إلى أغراض إستراتيجية آنية وأخرى سياسية مستقبلية...وإقناع الأهالي بأن المستقبل مع المستعمِر، وأنه لا مستقبل لهم بدونه"(منور، أ، 2000: 15).

وعليه، فان الكتابات الفرنسية احتلت رؤية خاصة وموقعا مركزيا سواء من حيث الكم أو النوع فيما يخص طابع القبائل الصحراوية، والمسالك التجارية وكيفية اختراقها،خاصة وان التطلعات الاستعمارية الفرنسية للسيطرة على المنطقة انطلقت من هذه الكتابات التي تم خضوعها للسلطة السياسية بباريس، وكل ذلك في إطار الحلم الرامي إلى بسط سيطرتها وربط الجنوب بالشمال الجزائري من جهة وربط الجزائر بباقي الدول الإفريقية من جهة أخرى.

****

1- المصادروالمراجع

- باجو، دانيال، (1997). الآداب العام المقارن، ترجمة: غسان السيد. القاهرة، مصر: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- بريتان، أندري وآخرون، (1984). الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة: رابح اسطنبولي وآخرون. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

- ابن خلدون، عبد الرحمن، (1981). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل دكار. بيروت، لبنان: دار الفكر.
- قويسم، الميلود، (2006). موسوعة التحقيق المتكامل في مناقب وقيم وتقاليد وتراث ونسب أولاد نايل ومن جاورهم من العروش والرفق والقبائل. الجزائر: دار الهدى.
- عميراوي، حميدة، (2005). قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر. الجزائر: دار الهدى.
- منور، أحمد، (2000). أزمة الهوية في الرواية الجزائرية، الجزائر: جامعة الجزائر.

2- المصادر باللغة الأجنبية

- Auber tine (a). (1900). Les femmes arabes en Algérie. Paris : société d'éditions littéraires.
- Eberhardt(I). (2015). Yasmina et autres nouvelles algériennes. Alger : éd talankit.

Fromentin(e). (1977). un été dans le Sahara. Paris: éd, Plon-nourrit et Cie imprimeurs.

- Fromentin(e). (2010). un été dans le Sahara présenté par Anne-Marie Christine. Paris : Flammarion coll.
- Fromentin(e). (1938). Un été dans le Sahara: Paris: Louis Conrad.
- Gastineau(b).(1861). Les femmes et les mœurs de l'Algérie. Paris : librairie de Michel Lévy-frères.
- George(r). (1891). Voyages à travers l'Algérie, 1886-1887. Paris : notes et croquis.
- Hamon (ph). (1981). Introduction à l'analyse du descriptif. Paris: éd, Hachette.

Sagues (g). (1951). La pléiade. Paris : Gallimard.

- Triaud(j-l). (1995). La légende noire de la sunisiya. Paris: éd, maison des sciences de l'homme.
- Trumelet(c). (1892). L'Algérie légendaire en pèlerinage aux tombeaux des principaux thaumaturges de l'islam. Paris: éd, Augustin-challamel.

3- المجلات

- Desanvitale(c). (1854). Tribus du Sahara algérien les ouled-nayls de l'ouest: société orientale, (15) ,201-274 .
- Guillard beaudan(c). (2011). Eugene fromentin du sahel au Sahara: les cahiers de l'orient, (101) ,127-151.